مجلة جامعة الملك سعود، م٢٤، *اللغات والترجمة* (عدد خاص)، ص ص ١٥-٣٥، الرياض (٢٠١٢م/١٤٣٣هـ)

قراءات في أدب الزنوج المكتوب بالفرنسية

بابكر علي ديومة

أستاذ النقد الأدبي والترجمة المشارك، كلية اللغات والترجمة، جامعة الملك سعود

(قدم للنشر في ١٤٣٢/٤/٤هـ؛ وقبل للنشر في ١٤٣٢/١١/٢٥هـ)

ملخص البحث. تفتقر المكتبة، لاسيما في المشرق العربي، للدراسات المعمقة في أدب الزنوج. ونظراً للروابط الوثيقة التي تربط بين العالمين العربي والأفريقي، ولأن البلاد العربية، وبخاصة الأفريقية منها، تتاخم دول القارة السمراء وتتفاعل مع قضاياها، رأينا أنه من المفيد تناول الملامح العامة للأدب الزنجي المعاصر بغرض إلقاء الضوء على نهج تفكير مبدعيه في تناولهم لقضايا وهموم الأمة السوداء، وما يشغل بالها من اهتمامات. ولا ندَّعي هنا بالطبع دراسة مجمل الإنتاج الأدبي لأدب الزنوج، لأن ذلك يستلزم حيزاً واسعاً لا يتلاءم ومحدودية المساحة المتاحة في مثل هذه الإصدارات. بيد أننا سنسعى جاهدين لتبيان الميادين التي ولجتها الحركة الأدبية الزنجية، والتباينات بين كُتّابها، والخطوط العريضة التي سيطرت على إبداعهم. ولعل الهدف الرئيس من هذا البحث هو لفت أنظار الباحثين العرب للغوص في دراسة أدب تناولته العديد من اللغات، وبقي حظه ضئيلاً في العربية.

توطئة

لئن كانت الدراسات النقدية في أدب الزنوج المكتوب بالإنكليزية جد متوفرة، فإن المكتبة، وبخاصة في المشرق العربي، تفتقر إلى ما يسلط الضوء على رصيفه المكتوب بالفرنسية أو المترجم إليها. ومن المعلوم أن أكثرية أمة العرب تقيم بأفريقيا، وأن جملة من البلاد العربية تتاخم جغرافياً وتتداخل عرقياً وحياتياً مع الكثير من دول القارة التي يتحدث السواد الأعظم من سكانها باللغة الفرنسية ويعبر معظم مبدعيها بها، لذا كان من الضروري أن يعمل الباحثون على تلافي مثل هذا القصور.

إن الحديث عن أدب الزنوج يطرح، في واقع الأمر، عدة إشكاليات سنتناول اثنتين منها في هذا المجال. تتلخص أولاهما في أن لفظة "أدب" تشتمل على ضروب شتى من الإبداع كالقصة والرواية والشعر والمسرح والمقال وما إلى ذلك. فلئن اخترنا الشعر موضوعاً لهذه الدراسة فلأنه يفوق ما عداه غزارة وتنوعاً، لاسيما إبان حقبة ما قبل الاستقلال، وهي الحقبة التي سيتناولها

البحث. أضف إلى ذلك أنه، أي الشعر، وضع في يد ناظمه الأداة المثلى والأكثر فعالية للتعبير عن شجونه، وبث الشكوى مما لحق ببني جلدته من ضيم جراء التهجير القسري من فضائهم الأصلي، وتذمره من الحيف الذي ألم بهم إبان حقبة الاستعمار. ثم إن صلة جد وثيقة تربط بين الشعر والموسيقى في وجدان المبدع والمستمع الزنجي على حد سواء. ولعل ذلك ما يفسر لنا الدور الذي أدته الموسيقى بوصفها أداة من أدوات تحرر الزنوج في بلاد الغرب عموماً، وفي أمريكا على وجه الخصوص، إذ يعد الطبل والمزمار وسيلتين لا تقلان أهمية عن الكلمة في وجدان الأسود... أداتان يستخدمهما في البحث عن الذات، والنضال من أجل الانعتاق. وقد تطرق الدكتور محمد عبدالحي إلى هذه الرابطة بين الشعر والموسيقى في حياة الأفريقي بالقول:

"والطبول في غرب أفريقيا تتكلم وتفهم. فهي جزء من (أدب) أفريقيا، قبل أن تكون جزءاً من موسيقاها. صوت الطبل في لغة الطبول يستعيد محاكياً أصوات اللغة البشرية، مركزاً لها ومعمقاً إيقاعها. فهو يحمل نفس رسالة اللغة المنطوقة، فهو كلمات يضعها من يعرف اللغة ومن تدربت أذنه على سماع إيقاعها المنطوق. فصوت الطبل صوت (لغويّ) قبل أن يكون صوتاً موسيقياً" (عبدالحي، ١٩٧٦م: ص ٩).

بل إن كاتباً مثل ماريو دي أندرادي Mario di Andiradi ليذهب أبعد من ذلك، إذ يرى في الطبول والإيقاعات الموسيقية مصدر إلهام للشاعر، وحافزاً يدفعه للعطاء. ذلك لأن:

"بعض الشعراء يثرون أساليبهم في الكتابة باستلهام إيقاع الموسيقى الشعبية في بلادهم، واستيحاء روحها" (أندرادي، ١٩٧٧م: ص ٤٢).

تتأتى الإشكالية الثانية من أن شعر الزنوج لا يمثل وحدة منسجمة تتفق فيها الرؤى، وتتقاطع التوجهات بسبب أنه لا يشكل فضاء جغرافياً واحداً، وإنما يعبر عن عوالم متنوعة تتعدد باختلاف الزمان، والمكان، والقضايا المطروحة، ورؤى الشاعر واهتمامات جمهوره. فنظم شاعر تعرف على أفريقيا عن طريق السماع باعتبارها الأصل والجذور وموطن الأجداد ولم تطأها قدمه البتة، لابدّ أن يختلف عن نظم آخر عرفها عن كثب ونشأ على ثراها. كما أن تناول شاعر أمريكي ذي أصول أفريقية عانى أسلافه مرارات الاسترقاق والسخرة في الحقول والمصانع، لابدّ أن يتباين بالضرورة عن تناول آخر ظل أسلافه حاضري القارة وتقل معاناتهم، نوعاً ما، إذا ما قورنت بتلك التي تأذى منها من وقع في الأسر وخضع للتعسف. كما أن شاعراً من أصول آسيوية بعيدة، كما هو الحال مع

شعراء مدغشقر، قد لا ينظر للغرب بذات المنظار، وقد لا يحمل تجاهه عين المشاعر وذات الأحاسيس كما يفعل شاعر ذو أصول أفريقية بحتة، ذلك أن المدغشقري يصر على أنه:

"مدغشقري، وليس زنجياً ولا إفريقياً... لذا، ينبغي علينا الاقتراب من الشعر المدغشقري الرفيع، آخذين في الاعتبار هذه الفروق الطفيفة... فروقاً لا ترقى إلى روح الانفصال، ولكنها تعبر عن احترام مجتمع وثقافة لهما طابعهما الخاص، وحتى يتسنى لنا أن نفهم جيداً اختلافاتهما مع الثقافات الإفريقية" (Kesteloot, 1967: p. 37).

وبذات المقاييس، إن إبداع من نالت بلاده الاستقلال، كما حدث في هايتي والدومينكان حينما أصبحتا أول جمهوريتين مستقلتين للزنوج، لن يكون مشابهاً لإبداع آخر تأخرت بلاده في نيل حريتها. وحتى الموضوعات التي قد يطرحها الشاعر الزنجي المعاصر وقد نالت بلاده حريتها وحدثت تغييرات اجتماعية في مجتمعات البيض التي يقيم بها، لن تماثل تلك التي طرقها من سبقوه إبان الحقبة الاستعمارية، حين كانت بلادهم ترزح تحت نير الاستعمار، وحين كان من يقيم منهم في مجتمعات البيض يعاني من العوز، والاضطهاد، والعنصرية، والخوف، وغياب العدالة الاجتماعية.

إن الاختلافات ظلت قائمة بين الشعراء الزنوج سواء من حيث النظرة إلى التاريخ ذاته، أو في تقييم ما تم عبره من ممارسات على الرغم من إجماعهم على أن غبناً تاريخياً لحق بجنسهم. وقد تطرق نيدل Needel لذلك بقوله:

"هناك توتر بين الزنوج الأمريكيين. توتر تعود جذوره إلى تاريخ جنسنا. إن الكيفية التي ننظر بها إلى هذا التاريخ، هي التي تحدد كيفية تحركنا. كيف ننظر لهذا التاريخ؟ بماذا نشعر تجاهه؟ ذلك أمر هام، لأن الطريقة التي ننظر بها إلى التاريخ، هي ما يجمعنا، أو يفرقنا" (Redmond, 1976: p. 355).

هذا التباين في تعدد الفضاءات الجغرافية، والانتماءات، والنظرة إلى التاريخ وتقييمه أدى إلى تنوع واختلافات جوهرية داخل إطار الشعر الزنجي. بيد أن بمقدورنا القول بأنه، وعلى الرغم من مثل هذا التنوع والاختلاف، إلا أن موضوعات بعينها ظلت توحد شعراءه جميعهم، سواء من كان مقيماً منهم بأفريقيا، أو من قُدِّرَ له العيش بأرض الشتات. نذكر منها: الشكوى من حيف التهجير القسري، والتفرقة القائمة على أساس اللون، والتعنت والاضطهاد وإهدار الحقوق، والثورة وتحدي الغاصب، والحنين والرغبة المتأججة في العودة إلى الجذور، ونجاح تجربة

التأقلم مع معطيات الواقع الجديد والسعي للتصالح مع الذات أو فشلها ومد أيادٍ بيضاء للغير أملاً في بزوغ فجر للإنسانية جديد يتسم بالتفاهم ويسوده الإخاء.

سنعمل على إعطاء مختارات تعبر عن كيفية تناول الشعراء، على اختلاف رؤاهم وتعدد انتماءاتهم للمحاور التي أوردنا. سنقوم أولاً بترجمة ما اخترنا من أشعار إلى العربية، قبل التعليق عليها واستخلاص المستفاد منها في سبيل الخروج برؤية جلية عن نظرة الشاعر للذات وللموروث، ولمن يحيط به من شعوب تختلف عرقياً وتاريخياً وحضارياً. وعلى الرغم من أن البعض، مثل ك. أ. سينانو K. A. Sinanon وت. فينسينت T. Vincent، يرى ضرورة إيراد القصائد المراد دراستها كاملة، فقد اعتاد:

"الأساتذة والدارسون، رغبة منهم في معرفة كل ما يتعلق بالقصيدة إلى تجزئتها ونسوا أن القصيدة عمل فني متكامل، وأن الطريقة الوحيدة لفهمها ولاكتشاف جماليتها هي أخذها كوحدة متكاملة من التعابير والألفاظ التي يعبر الشاعر من خلالها عن رؤية حياتية كانت خافية على الآخرين الذين يملكون مخيلة من مستوى أدنى والشاعر إذن يعمل على نقل تلك الرؤية إليهم ويكون تأثيرها أكمل إذا ما أخذت ككل متكامل" (سينانو وفينسينت، ١٩٨٥م: ص ١٣).

بيد أننا، ولمحدودية الحيز المتاح، سنكتفي بالأبيات المعبرة من القصيدة فقط، أي تلك التي تخدم أغراض ما نود تسليط الضوء عليه من موضوعات مثل ما يلي.

نبش مرارات الماضي
واستحضار عذابات الحاضر

تقترن شكوى الشاعر الزنجي بأسى وتمزق داخليين، وهو يسعى لاسترجاع كرامته المخدوشة وهويته المسلوبة. ضياع هوية يعبر عنه ليو داماس Léon Damas في "أعيدوا لي عرائسي السوداء" بقوله:

أعيدوا لي عرائسي السوداء
لكي ألهو معها
-—-—
لكي أستعيد كينونتي
-—-—
أن أصير ما كنته بالأمس[١]

(١) لم نشر إلى المصادر التي اقتبسنا منها القصائد المختارة، وذلك نظراً لورودها في العديد من الكتب والمجلات، وإن كنا قد اعتمدنا بصورة أساسية على مجلة "الحضور الأفريقي" (*Présence Africane*, 1961)، وعلى كتاب ماجي كوينجني Maguy Cuingnet "شعر العالم الأسود" (Cuingnet, 1973). قمنا بترجمة كل القصائد المنظومة بالفرنسية أو المترجمة إليها، مع معاينة النص الأصلي باللغة الإنكليزية في القصائد المترجمة من هذه اللغة إلى اللغة الفرنسية بغرض التثبت من دقة ترجمتها. ذلك أن ضرورة التقيد بعنوان البحث، اضطرتنا لعدم ترجمتها من الإنكليزية مباشرة.

فالسواد يرمز هنا إلى العودة للأصل، وللجذور، ولإفريقيا التي يناجيها دافيد ديوب David Diop من على البعد متأسياً على استنزاف طاقات بنيها في قصيدته "أفريقيا":

أفريقيا، أفريقيتي
أفريقيا المحاربين الفخورين من أسلافنا
أفريقيا يا من تترنم بك جلدتي من على ضفاف نهرها البعيد
لم أنعم بلقياك
بيد أن نظرتي تفيض بدمك
بدمك الأسود الجميل المراق على الحقول
دم عرقك
عرق جهدك
جهد العبودية
عبودية بنيك
يستعبدنا
حتى نفنى ونتعفن
نأتمر بأمره
ويعاملنا كالكلاب

ومن يفلت من قبضة عزرائيل الزراعة، فإن عزرائيل آفة مستحدثة أخرى كفيل بالقضاء عليه... آفة تدعى الصناعة، وفيها يقول لانجستو هوغ Langston Hughes، الأمريكي المنحدر من أب أبيض وأم سوداء، يقول في "عالم من فولاذ":

المصانع
تصهر وتمزق
تصهر الفولاذ
وتصهر حياة الرجال

الحال خارج القارة ليس بأفضل مما بداخلها. ذات التعسف وعين الاستنزاف. بل يجد الزنجي هناك نفسه أشد عرضة للمخاطر والفناء، حتى وإن مارس ما مارسه أسلافه من مهن. ففي قصيدته "القطن الملك المسن"، يقول ستيرلنغ براون Sterling Brown:

القطن الملك المسن
ـ ـــ ـ ـــ

التغلب على المعاناة

في سعيه الدؤوب لتأكيد الذات واستعادة حقوقه المهدرة، وللتخلص من الظلامات التي مورست عليه سواء في مجتمعات الرجل الأبيض نفسها، أو تعرض لها بنو جلدته في البلاد الخاضعة لسطوة المحتل، استخدم الشاعر الزنجي وسائل عدة للمقاومة. لكن ينبغي ألا يفهم، وهذه نقطة جوهرية، استخدامه لهذه الطرائق بصورة تراتبية آلية، بمعنى اللجوء إليها جميعها الواحدة تلو الأخرى. كما ينبغي ألا يتطرق إلى الذهن

أنه ظل متمرساً وراء أسلوب الدعوة إلى المقاومة لا يحيد عنه. صحيح أن لكل شاعر نظرته للكون وأسلوب نظمه المفضل... نظرة وأسلوباً تحددهما البيئة التي ترعرع فيها، مستوى ونوعية ما تلقى من معارف، ومدى تأقلمه مع معطيات الثقافة الجديدة التي وجد نفسه مضطراً للتعامل معها. لذا نجد أن من بين الشعراء من انتهج أسلوب الثورة والتصادم. جنح البعض إلى اللين والمهادنة والبحث عن أرضية مشتركة للتواصل مع الآخر. منهم من انكفأ على الذات محتمياً بحدود بلاده، وآخرون تملكهم الحنين إلى الجذور، فاستنجدوا بالماضي تغنياً بمآثر الأسلاف، وإعلاء لقيم الموروث الحضاري، وتصويراً لمباهج الطبيعة. سنتطرق إلى نماذج تمثل رؤى هولاء جميعاً في سعينا لرسم صورة للمنحى الذي أخذته أشعارهم.

رفض ديانة الرجل الأبيض

يلجأ المرء وقت الملمات والكرب إلى الإله بذلة وانكسار، وفي خشوع وابتهال يرجوه رفع البلوى، خلافاً لبعض شعراء الزنجية ممن لجأ للمناكفة والعتاب والتحامل على المسيحية، كما جاء في قصيدة "صلاة وثنية" لكونتي كيلا Counte Cullen، والتي يعاتب فيها المسيح على تجاهله الزنجي وعدم المبالاة بأمره:

أبانا الرب، أخانا المسيح

ـــــ ـ ـــ ـــــ

أنحن، إذن، أبناء سفاح
تصم أذنيك عن شكوانا
وتوصد أبوابك من الداخل في وجوهنا؟

ويقول تشكاي في قصيدته "عتاب للمسيح"، ناسجاً على نفس المنوال:

تظل ساكنًا
والكنغو يلعق مراراته

ـــــ ـ ـــــ ـ ـــــ

إنني أمقت مسيحييك، أيها المسيح

يرجع رفض الزنجي للمسيحية لأسباب عدة منها: أن الدين الجديد جاء رفقة المستعمر القاهر وتحت مظلته، إذ أتت الحملات التبشيرية، أول ما أتت، تحت حماية سلاح الفاتحين. كما أن هذه الديانة الجديدة لم تجد الأراضي المُستعمرة خلواً من العقائد والمعتقدات. صحيح أنها معتقدات وثنية في الغالب الأعم، بيد أنها كانت تلبي حاجات الفرد في احتكامه ولجوئه إلى قوة أعظم تفوق ما يتمتع به من قدرات ذاتية محدودة، إضافة إلى أنها لم تثبت على أرض الواقع ما ادعاه المبشرون بها من مناداة بالعدل والمساواة واحترام كرامة الإنسان، لذا رأى الزنجي في رفضها رفضاً لرافد من ثقافة أجنبية تهدف لاستعباده، ونهب ثرواته، وإذلال كرامته، ولهذا:

"وفي مؤتمر الكتاب والفنانين والمثقفين السود الذي عقد في باريس في سبتمبر عام ١٩٥٦م، يقول البروفيسور علي الملك، كان القرار الوحيد الذي اتخذ هو بعث الديانات والثقافات القديمة، وأوضح من هذا أن المسيحيين الأفريقيين شنوا هجوماً صارخاً على المسيحية ونادوا بأن تتحرر من صبغتها الأوروبية... لقد أحس الآسيوي والأفريقي بأن المسيحية التي غلبا باسمها، ليست بالحقيقة إلا دياناتهما في ثياب تنكرية" (الملك، ١٩٧٠م: ص ص ٤٩-٥٠).

ولئن وجدت العامة في القارة الأم والمهجرين قسراً إلى خارجها، لئن وجدوا أنفسهم مضطرين لاعتناق عقيدة فرضت عليهم، فقد اختار الشاعر الزنجي طريقاً آخر يتلخص في التذمر مما لحق بقومه من ذل وإجحاف. ولأنه، أي الشاعر، ما كان ليرضى الوقوف بمنأى عن القضايا الملحة التي تجابه أمته، فقد وجد نفسه مضطراً لمخاطبة إله لا يعتقد فيه أصلاً، يرجوه رفع الضيم عن بني جنسه. ذلك ما يؤكده، من بين آخرين، كونتي كيلا في قصيدة "صلاة وثنية" بقوله:

ليست من أجلي هذه الصلاة،
إنها من أجل الذين من جنسي،
ومن غياهب الظلمات،
يمدون أيديهم السوداء،
يطالبون بخبزهم ونبيذهم

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى مفارقة صارخة تطرحها هذه الأبيات. فلئن درج القس على تقديم الخبز والنبيذ لمن يعتنق المسيحية، فإنه يُظن بذلك على الجنس الأسود. يحرم منهما حتى من يود اعتناق ديانته، دع عنك أن يجود بها على من سواه في الحياة اليومية! فالشاعر، إذن، وباستخدامه لمفردات ذات دلالات دينية مثل: "الخبز" و "النبيذ"، إنما يود السخرية مما بشرت به الديانة الوافدة ولم تلتزم، أكثر من حرصه على تبيان غياب العدالة الاجتماعية.

التحدي

يرى الأسود أنه شريك أصيل للأبيض في خلق النماء واستمرارية الحياة، سواء أكان ذلك على ثرى بلاده وهو تحت قبضة المستعمر، أم في أرض المهجر، بيد أنه، أي الأسود، ما لبث أن شعر بدونيته... دونية أكدتها مجريات الأمور في الواقع المعيشي. من هنا تولدت وكبرت لديه الرغبة في إثبات وجوده ككينونة ينبغي أن تتمتع بما ينكره عليها الغير. أدى ذلك إلى تفاخر مفتعل، ورغبة في تضخيم الذات. تأخذ لهجة التحدي، وقد أخذت بالفعل، أنماطاً عدة منها: الإشارة لإسهامات السود في شتى الميادين، وبالأخص في مجالي تعمير الأرض وفلاحتها، والعمل على تعيير الأبيض بلونه

والازدراء بدينه ولغته، ثم استعراض ما يكمن في الجنس الأسود من قدرات وإمكانات هائلة واعدة. يقول جيمس ولدن جونسن James Weldon Johnson، وقد ولد في فلوريدا لأب أسود وأم خلاسية، يقول في قصيدته "لأمريكا"، يؤكد حقه في المواطنة الكاملة:

ينبغي على وجه الخصوص ألا يخطرنّ على بال أحد قط
أننا هنا بفضل مجرد تسامح

ـــــــــــــــ

هذه بلادنا بالميلاد
هذه بلادنا بعملنا
ساعدنا في إعمار أرضها العذراء
سال عرقنا على تربتها الخصبة

ويؤكد لانجستو هوغ، الذي أتينا على ذكره، يؤكد انتماءه لأمريكا، على الرغم من أنه ولد وترعرع بها، وأصبح من مواطنيها بحكم طبيعة الأشياء. بيد أن هاجساً خفياً يعربد في دواخله ينبئه بدونيته، فيسعى جاهداً لتأكيد هويته، ومحاولة إثبات وجوده. إن نظرات التعالي التي تصدر تجاهه بسبب لونه، وما يتعرض له من ذل واحتقار، كل ذلك يعطيه الأمل ويدفعه لتهيئة نفسه لانتصار لا محالة آت. استمع إليه يقول:

أنا أيضاً أمريكا
أنا أيضاً أغني لأمريكا

أنا الأخ الأسود

يقف البروفسور علي المك عند هذه الظاهرة، ونعني بها ظاهرة استماتة الأسود في تبرير انتمائه لبلاد يعيش على أرضها بالفعل، حيث يقول:

"إن الزنجي الأمريكي هو الأمريكي الوحيد الذي يقول "أريد أن أصير أمريكياً" وعلى كلٍّ، فإن سائر الأمريكيين الآخرين يولدون أمريكيين ويعتبرون (أمريكيتهم) أمراً مفروغاً منه. وعليه فإن مساعي الزنجي الأمريكي كي يصبح أمريكياً يريد بها تأكيداً لذاتيته، لأن أمريكا شيء خارج عنه، ولذا فهو يريد أن يصبح جزءاً منها. ولأن لونه يقصيه بسهولة عن اعتباره أمريكياً عادياً، ولأنه يعيش في خضم ظروف اجتماعية حبلى بالعنصرية، فإنه يصبح أمريكياً لا يقبله الناس كأمريكي، أي أمريكياً سلبياً. إن الوضع السيكولوجي الناتج عن هذا الموقف جد غريب، فالزنجي الأمريكي يكافح دائماً وباستمرار لكي يصبح أمريكياً، ومع ذلك فإن كينونة الزنجية تلازمه في كل شيء. فعندما يريد أن يصبح ناشراً، فهو "ناشر زنجي" وعندما يعمل طبيباً، فهو طبيب

زنجي. وعندما يصير رياضياً، فهو رياضي زنجي" (الملك، ١٩٧٠م: ص ص ٤١-٤٢).

ولنا أن نتساءل: هل يدرك من يعمد إلى الافتخار بلونه من السود وقوعه في المحظور بممارسته لعنصرية مضادة، وتكراره لذات الخطأ الذي اقترفه الآخر بحقه؟ يقول بيرنار داديي Bernard Dadié في قصيدته "أحمدك ربي"، يمجد لوناً أحالته المعاناة إلى السواد، ويقلل في ذات الوقت من شأن اللون الأبيض:

أحمدك، ربي، أن خلقتني أسوداً،

- - ـــ - ـــــ

الأبيض لون ظرفي

الأسود لون كل الأيام

أما ليو داماس، فينطلق من عنصرية واضحة لا لبس فيها ولا غموض حين ينسب إلى لونه جل الفضائل والمعارف في مضماري الفن والحياة، رامياً الأبيض، بصورة غير مباشرة، بالنقائص، وبالجمود وتبلد الشعور. ذلك ما يستشف من قصيدته "انتقام زنجي":

لن يكون بمقدور الأبيض مطلقاً أن يصبح زنجياً

لأن الجمال زنجي

وزنجية الحكمة

لأن الصبر زنجي

وزنجية الشجاعة

شمولية الثورة

حين لم تجد تأوهات الزنجي صدى في نفس الأبيض، وعندما فشل في حمل هذا الأخير على احترام آدميته والاعتراف بما يقع عليه من حيف، أعلن عن تمرده منادياً بمقاومة الجور. وليقينه بأن الاعتماد على قواه الذاتية لن يجدي في بيئة يسيطر فيها الرجل الأبيض على كل مناحي الحياة، فقد أخذ يبحث له عن نصير. وجد في حركات التحرر ملاذاً لا يعاضده في المطالبة بحقوقه فحسب، وإنما يشعره، عبر الحوار ومشاركته ذات الخندق، بإنسانيته التي سلبتها ممارسات وعنجهية الحضارة الغربية. ويرى البعض أن التقارب الذي نشأ بين الزنوج والشيوعية إبان حركات التحرر الوطني، لم يتم لاقتناع الزنوج بالشيوعية بوصفها فكرة مثلى، أو لأنها كفيلة بتقديم الحلول الناجعة لما يعانون من صعاب، وإنما لأنها أتاحت لهم أخيراً فرصة العثور على شريك يقيم لهم وزناً، يتفاكر معهم ويعمل على مؤازرتهم، الشيء الذي فشلوا في تحقيقه مع حضارة الغرب، على الرغم مما بذلوا من جهد، وقدموا من تضحيات. ارتكبت الحضارة الغربية، إذن، خطأً فادحاً حين أوصدت الأبواب في وجه الزنجي، ما دفعه للارتماء في أحضان قوى أخرى قدمت له يد العون، بل ساهمت في تقويض أهم أركان حضارة الرجل الأبيض ممثلاً في الاستعمار. يقول جاك روماين

Jacques Romain في قصيدته "زمن الأخوة"، معلناً شمولية الثورة، ورافعاً شعار وحدة مصير كافة المضطهدين، بمن فيهم المسحوقين من البيض:

لا أريد سوى أن أصبح من جنسكم
يا مزارعي كل البلدان وعمالها
نريد إشهار وحدة المعاناة
وحدة التمرد
تمرد كافة الشعوب على نطاق المعمورة

بيد أن الدعوة إلى التعاضد وطلب عون الآخرين، ينبغي أن يصاحبها جهد من جانب المضطهدين أنفسهم، إذ يتوجب على الزنجي التشمير عن ساعد الجد، والسعي لطلب العلا عن طريق البذل والعطاء. فلئن دأب الأسود دوماً على تحميل الأبيض تبعات معاناته وتخلفه، فلا أقل من أن يقف مع النفس أحياناً يمارس عليها نقداً ذاتياً. لعل ذلك ما عناه بول نيجير Paul Niger بقوله في قصيدة "لا أحب أفريقيا":

لا أحب أفريقيا تلك
أفريقيا من يجيبون دوماً بنعم
أفريقيا الدوسنتاريا، الطاعون، الحمى الصفراء

يتأسى آيمي سيزير Aimé Césaire هو الآخر على تخلف الزنجي وعدم أخذه بأسباب الحضارة المعاصرة. يقترن أسفه بشكوى مبطنة من مسؤولية الاستعمار فيما وصل إليه الحال. ففي قصيدته "الزنوجة" يقول عن السود:

الذين لم يخترعوا بودرة ولا بوصلة
الذين لم يعرفوا مطلقاً السيطرة على بخار أو كهرباء
الذين لم يكتشفوا بحاراً أو سماوات
بيد أنهم يعرفون أدق التفاصيل عن خبايا الألم
الذين لم يعرفوا رحلة سوى رحلة الاجتثاث من الجذور

أو كقوله يخاطب الزنجي محرضاً في قصيدته "خارج الأيام الغريبة":

متى ستتوقف عن كونك لعبة سوداء
في كرنفال الآخرين
أو فزاعة بالية في مزارع الآخر

تنامي الآمال والرغبة في التصالح

لا يجوز النظر إلى أمة، أي أمة، على أنها بوتقة متجانسة تضم أناساً تتفق مشاربهم، وتتطابق رؤاهم، وتتوحد أهدافهم، وتتلاقى مصالحهم. ولا تشذ أمة الزنوج عن هذه القاعدة، بمعنى أنها تضم في ثناياها الثائر والمنهزم، والرافض والمتقاعس، والمتطلع والقانع، والمرتبط بالأصل والجذور والمبهور بحضارة الغير. فلئن دعى جاك روماين إلى رفض الذل

والخنوع، وذهب إلى حد التحريض على إشعال ثورة كونية، ولئن نادى بعض ممن عاصره بضرورة إقامة وطن مستقل لزنوج أمريكا[٢]، فقد آثر آخرون ليس الجنوح إلى السلم فحسب، وإنما حتى للتصالح ومد جسور الثقة بينهم وبين البيض، يحدوهم الأمل في أن يتم التصافي، ويتحقق الإخاء. فآيمي سيزير الذي استمعنا إليه قبل قليل يأسف ويحرض، هو نفسه الذي يدعو الآن للإخاء الإنساني ونبذ الكراهية. يقول متوسلاً إلى قلبه في قصيدته "يد أفريقيا الممدودة":

... أحمني من كل حقد
لا تجعل مني رجلاً حاقداً

أما دعوة جاي تيروليان Guy Tirolien للتصالح والمحبة، فقد جاءت جلية لا تحتاج منا إلى تعليق. يقول في "المكان المعزول":

نعم، سأشيد بالإنسان
كل الناس
سأخطو صوبهم
القلب يفيض بالأغنيات
الأيدي ملأى بالصداقة
لأنهم خلقوا على شاكلتي

تقوم فلسفة ليوبولد سنغور Léopold Senghor الشعرية على فكرة محورية تتلخص في أن ما يميز السود ويحقق التآلف في أوساطهم لهما الحب والنخوة، وأنه لا ينبغي الاكتفاء بتحقيق التواصل بين بني البشر فحسب، وإنما من الضروري أن يتسع مدى الوئام ليطال الأشياء كذلك، إذ الحياة، وفقاً لسنغور، مترابطة الحلقات تتفاعل فيها الأجيال الحاضرة، أو حتى تلك التي لم تخلق بعد، مع الأجيال الغابرة. من هنا جاء نصحه لمن يعاني من عقدة الدونية في أوساط السود للنهل من معين تراث الأسلاف، لهذا فهو ينادي:

"بتهجين ثقافي يتمثل في إيجاد توليفة مرنة ذات رؤى إنسانية تقرب بين البشر، وبحضارة كونية يتاح فيها لكل جنس المساهمة في إثراء

(٢) من الذين نادوا بإقامة ولاية مستقلة للسود نذكر إليجا محمد الذي عُرف بافتخاره باللون الأسود. تزعم المسلمين السود قبل أن ينضم إليه مالكولم إكس الذي اغتيل في منتصف الستينيات من القرن المنصرم. ولا ننسى مارتن لوثر كنج وحركته السلمية في المطالبة بالحقوق المدنية للسود. لم تقتصر الحركة المطلبية الزنجية على الشعراء ورجال الفكر والدين والسياسة، وإنما تعدتهم لتشمل الأوساط الفنية والرياضية. ففي المجال الأخير، وحديثاً في أخريات القرن العشرين، نذكر الملاكم محمد علي كلاي الذي قال قبيل مباراته في كينشاسا في العام ١٩٧٤م في مواجهة جورج فريزمان: "أنتم الأفارقة لكم شيء لا نملكه نحن الذين نعيش في أمريكا. قد نكون أكثر منكم ثراء، لكن لكم الكبرياء". وعندما سئل: "لماذا امتهنت المصارعة؟" أجاب: "أنا أصارع لمساعدة إخوتي للتخلص من عقدة النقص، والمخدرات، والدعارة. هناك أشياء يمكن أن نفعلها، دون اللجوء إلى البيض". لم ينس الرياضي ذائع الصيت ما للرقص من أهمية كمكون أصيل في تراثه الأفريقي، إذ عندما سئل: "كيف تنوي هزيمة منافسك؟" أجاب: " سأرقص". وحين أبدى فريزمان دهشته من تشجيع الجمهور لكلاي مع أنه، أي فريزمان، أشد منه سواداً، رد عليه كلاي بالقول: "الفرق بيني وبينك هو أنني أؤمن بأن "أنا" تعني "نحن" " (حياة محمد علي كلاي، ملفات العربية، رقم ٣٨، فبراير ٢٠٠٩م).

التراث العالمي وفقاً لما أعطي من مواهب، وما يتمتع به من قدرات. كأن يقوم السود، مثلاً، ولإحساسهم بالحياة، يقومون بخلق توازن مع مخترعات البيض الميكانيكية" (Cuingnet, 1973: p. 103).

لنستمع إلى قوله في قصيدة "إلى نيويورك":

نيويورك، أقول نيويورك، دعي الدم الأسود يمتزج بدمك
ليضخ زيت الحياة في مفاصلك الحديدية يزيل عنها الصدأ
كي يعطي لجسورك تقوس الكفل ولدونة النبتة المتسلقة

لدعاة التصالح قناعة أكيدة ببزوغ فجر جديد. فلئن كان عالم اليوم قاتماً، فإن الغد، وفقاً للانجستو هوغ، سيحمل البشرى وستتحقق معه الآمال. يقول في "أهزوجة جديدة":

أوه! نعم
أقول بجلاء إن أمريكا لم تكن لي قط أمريكا
بيد أنني أقسم باليمين
بأنها ستكون أمريكا!

إن ما يدعو للتفاؤل، لهو انخراط الأسود في شتى ميادين الحياة، وتفاعله مع الغير، وأخذه بأسباب العلم والمعرفة. تلك معطيات تمثل للشاعر ريني ديبستر René Depestre العناصر الكفيلة بإحداث التغيير المرجو. يقول في قصيدة "من وطني المقيد":

اذهب أيها الزنجي واركض آمال الكون بأقصى سرعة
وعد مشرقاً بفضل كل الأيدي التي صافحت
بفضل كل ما اطلعت عليه من كتب وشاركت فيه من خبز
بفضل كل النساء اللائي معهنّ انسجمت
بفضل كل الأيام التي استصلحت
كيما تولد حبوب الإنسانية المذهبة

الحنين إلى الجذور

استعرضنا مواقف تيارين تتمثل قناعات أولهما في الدعوة إلى المواجهة بعد أن استبد به الحنق وفقد الأمل في استقامة الأمور، بينما اختار ثانيهما الوئام مراهناً على ما سيأتي به المستقبل. تيار ثالث ظل يغازل هؤلاء وأولئك، وجد خلاصه في الإبحار صوب مرافئ الماضي، يتملكه الحنين وتشده رغبة جارفة في العودة إلى الجذور. ونلحظ فوارق جمة حتى داخل إطار هذا الاتجاه الأخير، إذ تجد من بين أنصاره من يحن لأفريقيا ليقينه بأنها مستودع لقيم إنسانية رفيعة يفتقدها العالم المتحضر، وآخرين يحلمون ببساطة حياتها وتستهويهم

طبيعتها الخلابة وأرضها المعطاءة، فيسعون إلى الفرار ذهنياً من عالم يصيبهم بالكآبة والاختناق. فالشعور بالانتماء للقارة الأم إحساس عميق يقبع في أعماق الشاعر الزنجي، ويطفو إلى السطح حين تكتئب النفس ويشتد الضيق... إحساس عبر عنه جاك روماين بقوله:

أفريقيا / احتفظ بذكراك أفريقيا / أنت في دواخلي

يلبي الحنين الدفاق في العودة إلى الأصل أشواق الشاعر في معانقة تراب عشقه الأسلاف... ثرى يمثل في الوقت ذاته رابطة روحية بين الأجيال، الغائب منها والحاضر. يقول كونتي كولا في "ماذا تعني لي أفريقيا":

أنا من تفصله قرون ثلاث
عن أرض عشقها آبائي

وهاهو كامارا لي يفيض به الشوق إلى والدته فيخاطبها:

امرأة سوداء / أفريقية، أنت والدتي، شكراً شكراً
شكراً على كل ما قمت به من أجلي أنا، ابنك البعيد
ابنك القريب

ديفيد ديوب يحن هو الآخر إلى والدته، فيخاطبها بأرق العبارات في قوله:

حين تحاصرني الذكريات
ذكريات المراسي القلقة على حافة الهاوية
حين تحاصرني ذكريات أيام الضياع
أيام مهترئة لها مذاق المُخدر
من خلف النوافذ المغلقة
حينها أذكرك أمي
أذكر أهدابك الجميلة التي احترقت بفعل السنين
أذكر ابتساماتك في ليالي مرضي
ابتسامتك تهزم البؤس القديم

فالتعلق بالأم موضوع شائع في الشعر الزنجي وهو يرمز، في معتقدنا، إلى الأم الحقيقية كونها رمز العطاء، كما يرمز إلى القارة السمراء.

يمثل الحنين كذلك ملاذاً للهرب من التمزق الذي يتعرض له الشاعر... تمزق قد يتأتى من أمور حسية تصادفه في الحياة اليومية كما رأينا، وقد ينتج عن عوامل معنوية كاستخدام اللغة الأجنبية مثلاً، إذ يتوق الزنجي لتصوير عادات وتقاليد ومخزون حضاري أدرك عجز أي لغة، باستثناء لسانه الأم، عن نقل مضامينها. ذلك ما يشير إليه ليون لالو Léon Laleau في قصيدته "خيانة" بقوله:

هذا القلب الذي لا ينسى
قلب لا يتوافق مع لغتي وتقاليدي
قلب تمزقه المشاعر المستعارة وتقاليد أوروبا

أما جان فرانسوا بريير Jean François Brière، فيتحسر على اندثار لغته الأم، مشيراً إلى عجز ما عداها في التعبير عن ذاته، حيث يقول في "هأنذا هارلم":

نسينا لغة أفريقيا الدارجة
تغنيني حلمي وآلامي بالإنكليزية
وعلى أنغام موسيقاك ترقص جراحاتي القديمة
وأعبر عن قلقك بلغة فرنسا

إن إشكالية البحث عن لغة التعبير المناسبة لم تثر لغطاً واسعاً في أوساط المبدعين السود أنفسهم، وإنما تعدتهم لقرائهم ونقادهم من البيض. فلئن كان بعض هؤلاء يرى:

"احتمالية استفادة الشاعر الزنجي من الخلفية الغنية للإنكليزية والشعر الأمريكي (وذات القول ينطبق على الفرنسية وشعرها بالطبع)[٣]، أكثر من استفادته من اللهث خلف موروث أفريقي غابر، والتباكي عليه" (Redmond, 1976: p. 181).

فإن نقاداً آخرين يرون أن شعر السود يستمد بريقه من حيث كونه أدباً محلياً يتضمن شعراً غنائياً عاطفياً مكتوباً بلهجة الزنوج... شعراً نشأ، أول ما نشأ، ردة فعل جماعية من جانب من نقلوا قهراً وفرضت عليهم ديانة مغايرة، الأمر الذي خلق في نفوسهم توتراً ومواقف عدائية تجاه المسيحية والرجل الأبيض على السواء. ثم توسع مثل هذا النمط الشعري مع استشراء موجة فرار العبيد، وما كان يعقبها من جزاءات قاسية أدت إلى خلق ضمير عام زنجي مناهض للاضطهاد... ضمير ترجمه شعر شفاهي حركي تردده الجوقات في الكنائس، يهتف به المتذمرون في المسيرات المنادية بالانعتاق، ويُغنى في حلقات الرقص الجماعي في المناسبات الاجتماعية، وبخاصة إبان مواسم الحصاد. ولأن البيض يمثلون الشريحة الكبرى من قرائه والمأخوذين به، فقد كانوا يرغبون في استمرارية الشاعر على ذات النمط، واستخدام اللهجة المحلية إن كان يود التعبير عن مكونات ثقافته الأفريقية، لذا فإن:

"استخدام اللغة المعاصرة المنمقة قد أجبرت الشاعر الأسود على عزل نفسه عن جسم التجربة السوداء الأمريكية، واضطرته لاستخدام لغة ومنهج مناسبين للأمريكيين قاطبة. وعندما ينظم الشاعر بمثل هذه اللغة، فإنه لا يجد سوى قلة تصغي إليه، وقد لا يجد مستمعاً على الإطلاق، ذلك أن مستمع اليوم لا يعبأ بالاستماع لحالة الرجل الأسود، إن لم يرد وصفها بالكيفية التي يريد. وينبغي على الباحث عن فهم نثر السود الأمريكيين

(٣) الإضافة بين القوسين من عندنا.

وشعرهم أن يعي هذه الحقيقة الجوهرية: إن أي حرف سطره السود، وحتى مرحلة متأخرة نسبياً، لم يسطروه من أجل السود الآخرين، وإنما من أجل قرائهم من البيض" (Jackson and Rubin, 1974: pp. 2-3).

يعني الحنين أيضاً عناق طبيعة مهد الآباء والأجداد... طبيعة هي خليط من العطر والألوان، تزدحم بالحركة، تتعايش فيها جميع المخلوقات بتناغم وانسجام، تتسم بالهدوء، وتتميز بالبساطة، ويجيء الهرب إليها منجاة من تسارع وتيرة الحياة في العالم المتحضر. تهفو نفس جون-جوزيف رابياريفيلو Jean-Joseph Rabéarivélo إلى لوحة خلاقة يدعونا لتأملها بالخيال:

عند بزوغ الشمس
يشدو الرعاة بالخارج وهم يتقدمون قطعانهم
ترنيماتهم الساذجة الخفيفة
تخترق باسترخاء إغفاءتي وراحتي
وحين تهب نسمات الصباح
عبر نافذتي الخشبية الزرقاء
أخرج أستنشق عبق الزهور العذرية
بخور هادئ يتبخر وعطر يبحث عن دفء

التأقلم

نعني بالتأقلم ترويض النفس على التطبع بغير ما جُبلت عليه من تقاليد وخصال وطرائق حياة، وحملها على التوافق مع نمط حياة أخرى تقرباً من أصحابها، أو تزلفاً إليهم. إن من يسعى للتأقلم لهو الوافد بطبيعة الحال، ذلك أن صاحب الديار يرى في أسلوب حياته قدوة ونمطاً يحتذى بهما بسبب أنه ربما لم يجرب غيره، أو ينفتح على سواه، لذا تراه ينظر بعين الريبة، بل بالاحتقار أحياناً، لمن يخالف ذلك الأسلوب، وقد يذهب حتى إلى حد وصفه بالتوحش، كما صُنف السود في العالم الغربي. يضطر الوافد، إذن، إما لمجاراة من يقيم بينهم في كيفية عيشهم، وإما الانغلاق على ذاته مع ما يترتب على ذلك من تبعات. وللتأقلم دوافع عدة. منها البحث عن الوئام وراحة النفس، والتسلق وطرق أبواب النجاح، والانبهار بما عند الآخر. نجد بين الوافدين من تحدوه الرغبة في التفوق والتميز ليس على مواطني البلاد التي تستضيفه، وإنما حتى على بني جلدته ممن يشاركه الإقامة بها. يصف أحد السود هذه الطائفة الأخيرة بالقول:

"إن الزنوج الذين ينبهرون ببياض اللون، لهم على ذات الدرجة من السوء كالبيض أنفسهم. لا، بل أنهم لأشد إثارة للسخرية، لأنهم لا يتجنبون كراهية البيض فحسب، وإنما يكرهون خدمهم من السود" (Jackson and Rubin, 1974: p. 91).

تتسم وضعية الوافد دوماً بالهشاشة، لذا تراه يسعى مستخدماً كافة السبل في سبيل الظهور كشخص لا يختلف عن الآخرين. ويتم ذلك، بالضرورة، عن طريق التخلص التدريجي والمتعمد عما كان يحمل من خصال وإن كانت حميدة، والتشبث بصفات للغير وإن كان يراها ذميمة. يعني التأقلم، إذن، اللعب على حبلين والعيش بوجهين: ذات متأصلة تعشقها وتبجلها النفس، وأخرى مفروضة تقتضيها ضرورات الحياة. تلك هي المعضلة التي وجد فيها الشاعر الزنجي نفسه: فإما صدق مع الذات والتزام بالموروث وتقبل لما يمكن أن يطلق عليه من صفات ذميمة كالتوحش مثلا، وإما طمر ما يظن ويعتقد في الأعماق، والتكيف مع رؤى وقناعات الآخرين.

بيد أن عاملاً رئيساً عاون الزنجي في التغلب على مثل هذه الإشكالية. فهو لم يقم بدعوة البيض إلى القدوم والاستيطان في بلاده، كما أنه لم يذهب إلى بلاد الغرب، وبخاصة إلى العالم الجديد أرض الحلم الأمريكي، عن طواعية واختيار. فرض الاحتلال على وطنه بقوة السلاح، وأجبر على دخول مراكب التهجير مقيداً بالسلاسل. وبما أن الأبيض هو من تعمد وضع نفسه في طريق الأسود، فلم يكن هذا الأخير بحريص ولا مهتم بتزلف الأول، أو العمل على إرضائه. إذ تصرف الأسود على سجيته ولسان حاله يقول لمن اقتلعوه من جذوره، أو جاءوا إلى بلاده محتلين: هكذا أنا، كما أنا. فإن لم تسركم طباعي، فأعيدوني من حيث اقتلعتموني، أو عودوا أدراجكم من حيث أتيتم.

وثمة أمر آخر ساعد الزنجي في الاحتفاظ بكينونته وما نشأ عليه من قيم، إذ ظل كتاباً مغلقاً بالنسبة إلى البيض. كتوم على أسراره، لا يبوح بمكنونات صدره، يمعن في إخفاء خططه الجارية ومشاريعه المستقبلية، يرتاب ويتوجس من الأبيض ومن أعوانه. إذ السود، سواء أكانوا أكثرية في بلادهم الأصلية، أم أقلية في ديار الغير، مكتفون بأنفسهم، معتمدون على قدراتهم الذاتية. تعلموا من تجربة الاستعمار ومعايشتهم للأبيض، تعلموا ألا خير يرجى من جنس يمارس عليهم تمييزاً عرقيا، يضطهدهم ويقلل من قدرهم. توصلوا إلى قناعة مفادها أنه:

> "لم يكن لدى الأبيض يوماً، وليس لديه الآن، سوى النذر اليسير، هذا إن كان له شيء على الإطلاق يمنحه للسود باستثناء النفاق والعار" (Jackson and Rubin, 1974: p. 86).

دفع هذا الاعتقاد من لايجري الرياء في دمائه إلى المحافظة على استقلاليته وكينونته، فجاءت محاولات تأقلمه مع مجتمعات البيض أقرب إلى التهكم والسخرية، منها إلى الأخذ بطبائعها والتخلي عما يؤمن به ويعتقد. مثال ذلك ما ورد في قصيدة جاي

تيروليان Guy Tirolien "دعاء طفل زنجي"، يصف فيها تمرد طفل وعزوفه عن الذهاب إلى مدرسة البيض:

أفضل التسكع في مزارع قصب السكر
فالزنوج، كما تعلم، خارت قواهم من العمل
ثم إن مدرستهم لجد تعيسة
تعيسة
تعاسة سادة المدينة،
سادة كما ينبغي،
سادة لم يعودوا يرقصون مساء تحت ضوء القمر،
سادة لم يعد بمقدورهم السير على أقدامهم،
سادة لم يعد باستطاعتهم سرد الحكايات أوان السمر.
إلهي، لم أعد أرغب في الذهاب إلى مدرستهم.

أو كما جاء في قصيدة "فن الحياة" لليو داماس، وهي أبيات على الرغم من بساطتها وسطحية فحواها، إلا أنها تعبر عن تلقائية الأسود، تشبثه بما شب عليه وسعيه في الذود عن خصوصيته ونفوره من الرياء، واستهجانه كل عمل يقوم على نفاق:

لا يتثاءب المرء عندنا
كما يتثاءبون هنا
بوضع اليد على الفم
أريد التثاؤب دون تباه
الجسم منكمش

خاتمة

لم يكن بمقدورنا، ونحن أمام كم هائل من شعر الزنوج، سوى الاكتفاء بنماذج جد قليلة لا يسمح الحيز المحدود لهذا البحث باستيعاب أكثر منها. تطرقنا إلى الإشكاليات التي يطرحها هذا الشعر من حيث تعدد فضاءاته الجغرافية وتباين اهتمامات شعرائه. لم نكن نطمح لتبيان ما بينهم من تقاطعات واختلافات جوهرية، بقدر ما كان هدفنا رسم صورة عامة لما طرح من محاور تشكل القاسم المشترك بينهم جميعاً. وكنا قد أشرنا في المقدمة، ولا نرى بأساً من التكرار لمزيد من التأكيد، أن أبيات نوردها لشاعر يستبد به الحنين إلى القارة الأم، لا تعني البتة أن شاعرها لم يطرق غير ذلك من موضوعات، فالشعراء، جل الشعراء، لا يلتزمون خطاً مستقيماً لا يحيدون عنه، إنهم كالطقس لا يدوم على وتيرة واحدة، إذ قد تظهر طلائع الفصول الأربعة في اليوم ذاته، وهكذا حال الشعراء من الزنوج. تقرأ لأحدهم قصيدة رقيقة تفيض عذوبة وشوقاً مهداة لأم بعيدة، ثم تطالعك له بعدها أخرى مشحونة بالتحدي، تجأر بالشكوى من واقع مرير وتذمر من وضع هامشي يلازمه حيث يقيم.

بيد أن من يغوص في هذا الشعر تسترعي انتباهه قضيتان رئيستان. تتلخص أولاهما في اختيار اللغة، وما يستتبع ذلك من نتائج، إذ لم يغب عن ذهن السواد الأعظم من الشعراء السود ما للغة من أهمية، سواء من حيث كونها حصناً يصون خصوصية الجنس،

أو من حيث قدرتها التعبيرية عن الموروث الحضاري. غير أن لقرائهم من البيض وجهة نظر مغايرة، إذ تستهوي طلاب الترفيه منهم استمرارية الزنجي في نظم أشعار ذات صبغة عاطفية غنائية وبلهجة محلية، في حين يرى الأيديولوجيون بعيدو النظر حمله على النظم بلغة عصرية منمقة، تمهيداً لاجتثاث ما يحمل من مكونات عرقية، وتذويباً لشخصيته بغرض محو ذاكرته الجماعية. ولقد استجاب بعض الشعراء لدعاة التيار الأخير، فجاءت أشعارهم بلغة رصينة تفوق لغة شعراء الغرب أنفسهم من حيث الجودة. آخرون كتبوا أشعارهم باللهجات المحلية، ثم ما لبثوا أن تركوها ولحقوا بركب دعاة استخدام اللغة الأجنبية.

لكن أسئلة ملحة كثيرة تطرح نفسها في هذا المجال: إذ عن أي لغة أفريقية يتحدث هؤلاء الشعراء الزنوج؟ وهل لأفريقيا لغة واحدة يتحدثها الجميع؟ أليس هناك مئات اللهجات المحلية المتباينة تتحدثها مئات المجموعات المختلفة عرقياً هي الأخرى؟ على أي لهجة، إذن، سيقع الاختيار؟ وما المعايير التي سيتم بموجبها التفاضل؟ ثم أليس في مثل هذا الاختيار تهميش لثقافة من لا يتحدث اللهجة المتبناة؟ وكيف يمكن التواصل الحضاري والتلاقح الثقافي مع الآخر، مع الأوروبيين مثلاً؟ أسيتحتم تعليمهم تلك اللهجة، حتى يكون بمقدورهم الإلمام بما عانى منه ويعيشه الأسود من قهر وظلم اجتماعيين؟ ثم ألم تصبح لغة المستعمر ممثلة في الإنكليزية والفرنسية، ألم تصبح، شاء البعض أم أبى، لغة كونية سواء من حيث ضخامة عددية من يتحدثها، أو من حيث قدرتها التعبيرية عن ملامح العصر، وبخاصة ما يشهده من وتيرة متسارعة في مضمار التقدم العلمي؟

ينبغي ألا يُفهم مما تقدم استهجاناً منا للغات المحلية، أو تقليلاً من شأن ما تعبر عنه من ثقافات. كل ما نود أن نخلص إليه هو أن طبيعة عالم اليوم تقوم على الكيانات الكبيرة الممتدة، سواء كان ذلك في مجال الثقافة والفكر، أو في دنيا المال والأعمال. واللغة، بوصفها عنصراً وسيطاً في كل منشط حياتي، لم تعد تكتفي بالتعبير عن آمال وتطلعات المجموعات الصغيرة، وإنما تسير بخطى حثيثة صوب العالمية. ولعل ما يعضد هذا القول أن جل السود من المتحمسين للرجوع إلى اللغات الأفريقية والمتحسرين على اندثارها، هم من دهاقنة لغات الغرب، يتحدثونها كلغة أم منذ طفولتهم الباكرة، ويرون في اللغات الأفريقية لغات أجنبية!

أما المسألة الرئيسة الأخرى، فهي البحث عن الذات وتأكيد جذورها الأفريقية. فقد تناول الشعراء موضوعات تتمحور حول العبودية والتشرد والسخرة والفقر المدقع والعنف والقمع والتفرقة في مجال العمل والكآبة والاضطراب النفسي والحبس التأديبي وتحيز الرب المسيحي لأبنائه من البيض والخوف، وما إلى ذلك من هموم. تناولوها بأسلوب امتزجت فيه أحياناً الغبطة بالألم واللين بالشدة والرجاء باليأس والحنين

بالشكوى والتأقلم بالانطواء. بيد أنه من الواضح الجلي أن الجوانب السالبة من ألم وشدة وشكوى وانكفاء على الذات كانت لها الغلبة فيما استعرضنا من أشعار. يعود ذلك إلى أن جل الشعر ظل أسير ذاكرة الماضي، يجتر ذكريات تسلط الرجل الأبيض وما ذاق السود من مرارات وانتقاص في الحقوق فظيع، إذ ترسخ ذلك في خيال الشعراء فشغلهم ليس فقط عن التطلع للمستقبل بثقة وتفاؤل، وإنما صرفهم كذلك عن التأمل في قضايا الحاضر والتكيف مع الواقع المعيشي. نتج عن ذلك أمران: أولهما أن الجيل الأول من الشعراء الزنوج، الذين ما فتئوا يحملون الرجل الأبيض كامل المسؤولية فيما أصاب أفريقيا من تخلف، سعوا جاهدين لنقل هذا الغبن إلى الجيل المعاصر من رفقائهم، بيد أنهم لم يفلحوا سوى جزئياً. نقول جزئياً لعدة عوامل منها: أن الشعراء المعاصرين لم يعيشوا أيام الضياع والحرمان كما فعل أسلافهم، وبالطبع فليس من عانى كمن سمع. زد على ذلك انخراط السود اليوم في شتى مناحي الحياة، وحرصهم على تنشئة أبنائهم تنشئة عصرية وإلحاقهم بمعاهد العلم توسيعاً لمداركهم وتدريباً لهم على كل حرفة وفن، لذا جاء انتقاد الشاعر المعاصر للحضارة الغربية أقل حدة، وأكثر موضوعية. كما شهد شعراء هذا الجيل تمتع أبناء جلدتهم بالكثير من الحقوق المدنية واختلاطهم بمختلف المجتمعات، ما أدى إلى تلاشي المشكل العرقي وذوبانه تدريجياً. لذا يلمس المتأمل في شعر الزنوج المعاصرين مرآة للتعبير عن الآمال والتطلعات الشخصية وتعبيراً عن التجربة الذاتية، أكثر من كونه تصويراً لذاكرة جماعية، أو نبشاً لما عانى الأسلاف من مرارات وأحزان.

شكر وتقدير

نشكر مركز البحوث في كلية اللغات والترجمة (عمادة البحث العلمي)، جامعة الملك سعود على الدعم المقدم لهذا البحث (د. بابكر ديومة).

المراجع

أولاً: المراجع العربية

أندرادي، ماريو دي. *الشعر الأفريقي باللغة البرتغالية: تطوره واتجاهاته الراهنة.* ترجمة الطيب الرياحي، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة الكتب المترجمة ٣٨، (١٩٧٧م).

سينانو، ك. أ.، وفينسينت، ت. *مختارات من الشعر الأفريقي.* ترجمة جميل الضحاك، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، (١٩٨٥م).

عبدالحي، محمد. *أقنعة القبيلة، قصائد من الشعر الأفريقي المعاصر: ترجمات ودراسات.* الخرطوم: مطبعة التمدن، (١٩٧٦م).

المك، علي. *نماذج من الأدب الزنجي الأمريكي*. ط١، قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، (١٩٧٠م).

ثانياً: المراجع الأجنبية

Bone, Robert. "American Negro Poets, a French View." (1965).

Colin, Marie. *Black Poets in French*. New York, (1972).

Cuingnet, Maguy. *Poésie du Monde noir*. Paris: Hatier, (1973).

Davis, Arthur. *The New Poetry of Black Hate*. (1970).

Eliet, Edouart. "Panorama de la Littérature négro–africaine". *Présence Africaine*, (1965).

Henderson, Stephen. *Understanding the New Black Poetry: Black Speech and Black Music as Poetic References*. New York, (1973).

Hughes, Langston. *La Poésie Négro–Américaine*. Paris: Seghers, (1966).

Jackson, Blyden and Rubin, Louis D. *Black Poetry in America*. Louisiana State University Press, (1974).

Kesteloot, Lilyan. *Anthologie négro–africaine*. Marabout université, (1967).

Les Fondements de l'Africanité, ou Négritude et Arabité. *Présence Africaine*, (1967).

***Présence Africaine*.** "Recueil de poèmes." (1961).

Redmond, Eugene B. *The Mission of Afro-American Poetry*. New York: Anchor Press, (1976).

Tinker, Edward Larouge. *Afro-French Poetry in Louisiana*. New York, (1930).

Valenti, Suzanne. "The Black Diaspora: Negritude in the Poetry of West Africans and Black Americans." *Phylon*, (1973).

Wagner, Jean. "Les poètes nègres des Etats – Unis: le sentiment racial et religieux dans." La poésie de P. L. Dunbar à L. Hughes, Paris, (1963).

Readings in African Literature Written in French

Babiker A. Dayoma
Associate Professor, Dept. of French Language and Translation,
College of Languages and Translation, King Saud University

(Received 04/04/1432H.; accepted for publication 25/11/1432H.)

Abstract. Literary criticism of African literature written in French is extremely rare in the Arabic language. The fact that the majority of Arab countries are in Africa, neighboring nations that have French as their medium of communication, highlights the necessity of according more attention to the study of African literature written in French. It is obvious that such a study presents a number of challenges due to the diversity of the literature itself, and because of the different place of origin of the works, coupled with the variety of issues raised by writers and poets.

The present study focuses on the most common themes dear to renowned African poets, such as: racial discrimination, slavery, injustice, deportation and attempts of returning back to origin, in addition to praising the moral qualities of the blacks. Poets differ in their approach to dealing with these themes: some accepting the situation in which they found themselves and attempting to adapt to it, while others declare war against their conditions. A third category, however, finds comfort in dreaming of the pre-colonial Africa.

It is hoped that this study, limited as it is, will contribute to shedding light on this vast issue, and encourage other researchers to tackle the subject more profoundly.